أفغانستان

قبل الفتح الإسلامي وفي أيامه

اللواء الركن محمود شيت خطاب



فرزة من مجلة المجمع العلمي العراقي
الجزء الثالث من المجلد الحادي والثلاثين

شعبان ١٤٠٠ هـ

افغانستان قبل الفتح الإسلامي

وفي أيامه

تـأليف

اللواء الركن محمود شيت خطاب

جمع وترتيب : المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي

منشور في مجلة المجمع العلمي العراقي – المجلد 31 – ج3–

ص 34 – 60

1400هـ - 1980م

أفغانستان
قبل الفتح الإسلامي وفي أيامه

اللواء الركن محمود شيت خطّاب

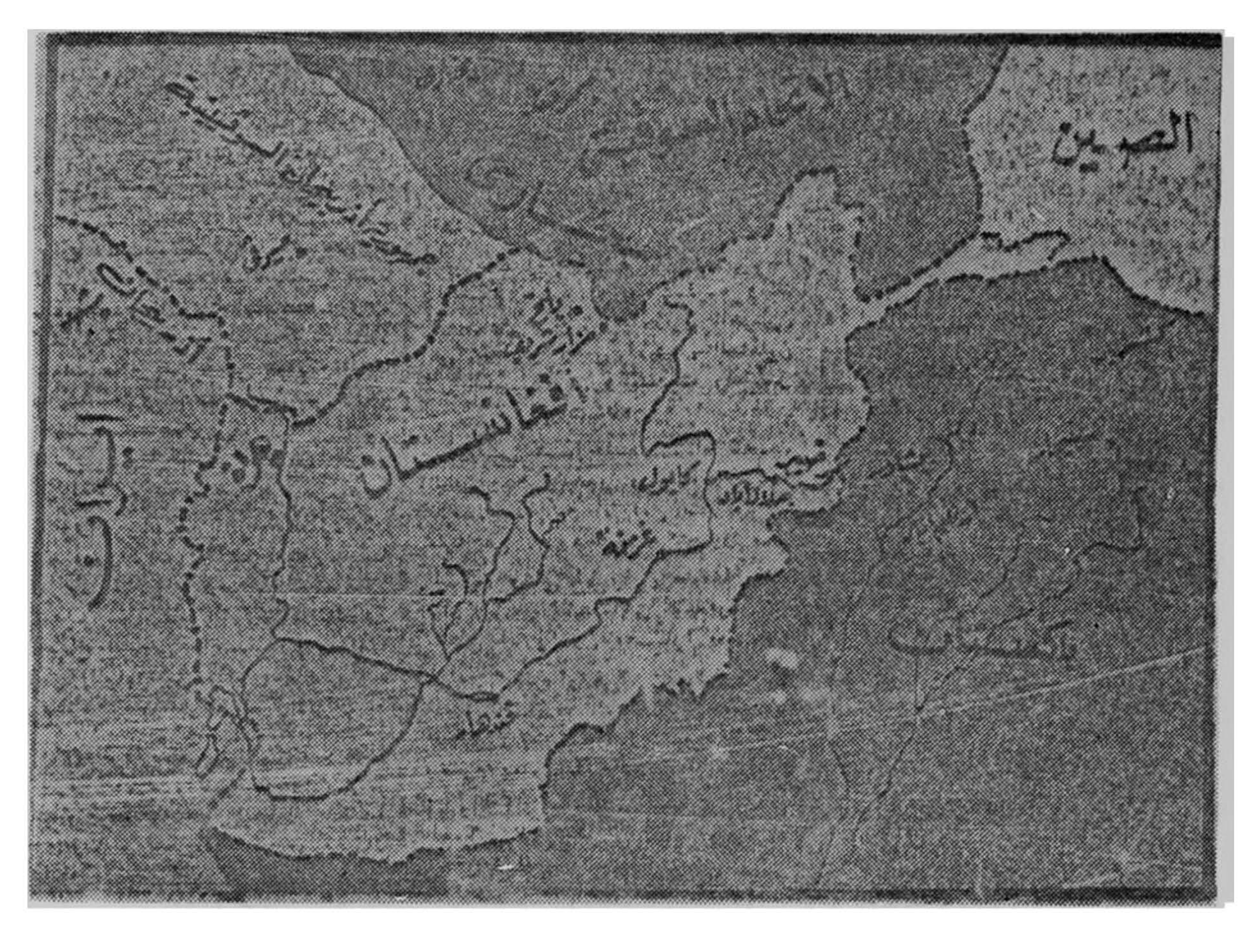
عضو المجمع

يُقصد بكلمة (أفغانستان) بلادَ الأفغان ، وقد عُرِفَت أفغانستان في التاريخ البعيد باسم : (آريانا) نسبة إلى الآريين ، وتعني كلمة : (آرى) النبيل .

وتُعتبر أفغانستان مهد الآريين الذين هاجروا إليها من سهول (تُركستان) الغربية قبل الميلاد بنحو ألفي سنة ، ولو أنّ بعض المؤرخين يرجع تاريخ هجرتهم إلى أكثر من أربعة آلاف سنة .

ولما استقر الآريون في أفغانستان . تحوّلوا بمرور الأيام من حياة الرعي والانتقال إلى حياة الاستقرار ومزاولة الزراعة وبناء القرى وتعميرها ، إلى أن تَمَّ لهم بناء مدينة (بَلْخ) التي عرفها العرب باسم : (أم البلاد) والتي تقع في مقاطعة : (مزار شريف) شمالي أفغانستان .

ويروي التاريخ أن الآريين الذين شيّدوا (بلخ) ، كانوا أوّل مَن سنّ القوانين وأقام الدساتير ووضع القواعد والأسس السليمة للحضارة البشريّة ، ففي الوقت الذي وصلت فيه مصر إلى قمّة مجدها ، كانت (آريانا) تضع الأسس الأولى للحضارة العالمية ، وكان الأمن والنظام قد وصلا فيها إلى أعلى مستوى حضاري ولما تكاثر سكان (آريانا) وضاقت بهم الأرض ، هاجر قسم من القبائل الآرية متّجهة نحو الهند وغرباً نحو (فارس) ووصل قسم منها إلى أوروبا ، وقد نقلوا معهم الحضارة إلى البلاد التي هاجروا إليها .



وعندما نطالع (القيداس) الأربعة، وهي الكتب المقدّسة القديمة عند الهندوكيين، نرى أنها تحكي وتشرح حيـاة الآريين في (بَلْخ) عاصمة (آريانا) ، ومن هذا يتّضح أنْ العقيدة الهندوكيّة نشأت أولاً في أفغانستان ، ثم هاجرت إلى الهند وشاعت فيها .

وبعد ذلك ولد (زرادشت) في (بَلْخ) صاحب (أفيستا) الذي أسس المذهب (المثنويّ) بعقيدة الخير والشر .

وفي سنة ثلاثين وثلاثمائة قبل الميلاد ، غزا الأسكندر المقدوني أفغانستان وأقام مدينتي (قُندهار) و (هَراة) ، واستمر حكم اليونان بعده ما يقرب من مائتي سنة.

ولما جاء الأسكندر المقدوني إلى أفغانستان ، كان معه (كلسنانْسُ) الفيلسوف المؤرِّخ ابن أخت الفيلسوف (أرسطو) ، فتأسست المدرسة اليونانيّة في أفغانستان،

وَاتّحد الفكر والفن البوذي ، كما تحوّل الفن والفكر أيضاً إلى ما يسمى (إغريقو بوذيك) أي اليوناني البوذي ، وقد استمرّت هذه المدرسة في أفغانستان عدّة قرون وتركت فيها آثاراً باقية .

وفي القرن الأول قبل الميلاد ، تدفّقت جموع من قبيلة (كوشان) إلى افغانستان من منطقة (تركستان) الشرقية ، فقامت الأمبراطورية الكوشانيّة التي كان من أشهر حكامها (كانشكا) الذي حكم في القرن الثاني الميلادي .

وكان قد ظهر (بوذا) في الهند وأسّس مذهبه ومدرسته هناك ، إلاّ أنّ هذه المدرسة لم تنتشر تعاليمها ولم يكن لها شأن ونفوذ وصدى ، إلاّ بعد ما شاعت في أفغانستان واعتنقها ملوك الكوشانيين العظماء ، فارتفع شأنها وذاع صيتها في البلاد المجاورة ، حتى في الهند ذاتها .

وعندما قويت الدولة الساسانيّة ، تقلّصت قوة الكوشان ، وتتابعت إمارات محليّة صغيرة بيد أمراء يحكمون البلاد باسم السّاسانيين .

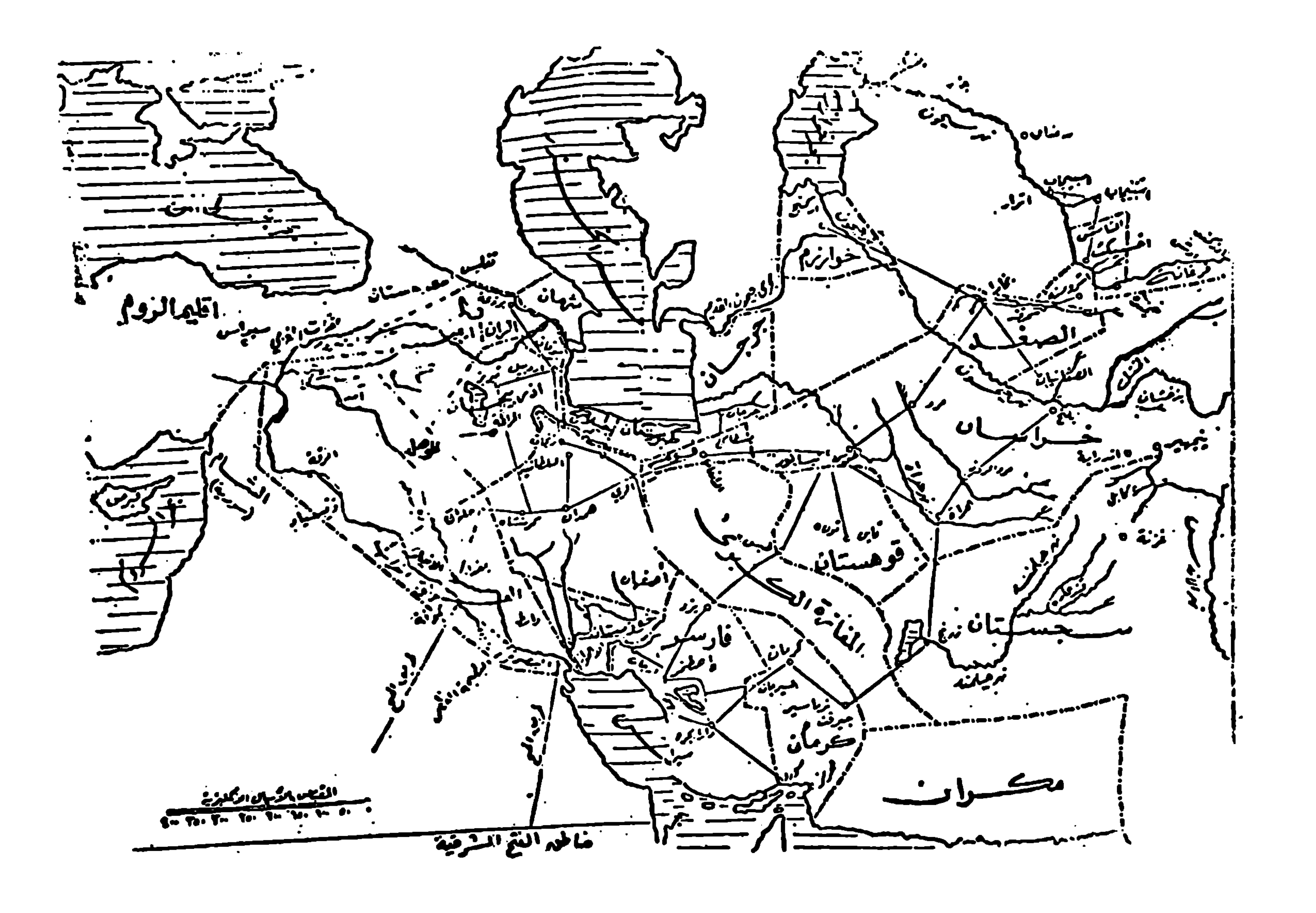
واستمرّت هذه الأمارات المسيطر عليها من السّاسانيين في الحكم ، حتى قدم المسلمون فاتحين .

وكانت أفغانستان في عهد الساسانيين تعرف باسم : (خُراسان) ، ومعنى خُراسان : أرض الشمس .

أما أيام الساسانيين : قيام الدولة السّاسانيّة ، وتنظيم دولتهم ، والادارة المركزية التي تشمل الوزارة ورجال الدين والقضايا الماليّة ، والصناعة والتجارة والمواصلات والجيش والكتّاب وموظفي الدولة وإدارة الأقاليم . والزردشتية التي هي دين الدولة والشعب ، فتجدها في مقدمة كتابنا : قادة فتح بلاد فارس [1] ، فليرجع إليها مَن شاء التعمُّق في تاريخ تلك الدولة في أيام ظهور الإسلام وفي عهد الفتح الإسلامي ، فقد كانت أفغانستان قسماً من أقسام الدولة الساسانية .

وعندما اعتنق الأفغانيون الإسلام ، حطّموا الأصنام والأوثان ، وتمسكوا بالدين الحنيف ، وأخذوا ينشرونه في أرجاء أفغانستان والهند وما وراء النهر ، وحملوا مشعله

(١) قادة فتح بلاد فارس (١١ – ٨٠) .



خارطة الفتح الشرقية
اقليم الروم
خراسان
الصغد
قوهستان
المفازة الكبرى
فارس
كرمان
مكران
سجستان
جرجان
خوارزم
أصفهان
همذان
الري
تفليس

شرقاً وغرباً ، فأصبحوا من أخلص دعاة الإسلام ، وكان لهم تاريخ مجيد في نشر الإسلام وبخاصة في الهند وايران وفيما وراء النهر .

لقد أثر الإسلام في الأفغان تأثيراً عميقاً . فأصبحوا من المتمسكين بالاسلام وتعاليمه ولا يزالون ، فكانت أفغانستان من حصون الإسلام القوية في ماضيها وحاضرها ، وستبقى كذلك في مستقبلها باذن الله[1] .

طبيعة أفغانستان

١ ــ الموقع :

تقع أفغانستان في قلب آسيا في منطقة بعيدة عن البحار ، تمتد على رقعة واسعة من الأرض تبلغ مساحتها (٦٥٠٫٠٠٠) كيلو متر مربع ، تشكل السفوح الغربيّة لتلك الجبال الشامخة التي تشغل وسط آسيا ، فيتكوّن معظم سطحها من مرتفعات ، خلا بعض المساحات التي تشمل قسماً من المناطق الغربية في الشمال الغربي والجنوب الغربي .

وتشكّل أفغانستان القسم الشرقي من هضبة (إيران) . وتغلب الصفة الجبليّة على سطحها ، ويكون الميل العام من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي .

وتبدأ المرتفعات في الشمال الشرقي بهضبة (بامير) التي تشكّل عقدة تتفرّع منها السلاسل الجبلية الشامخة ، ويبلغ متوسّط ارتفاعها (٣٠٠٠ م ــ ٣٦٠٠م) ، ولكنها تصل في بعض قممها إلى (٦٠٥٤ م) داخل أفغانستان ، وتشكّل مناطق الحدود بينها وبين تركستان وكشمير وباكستان والتيبت ، وتغطى الثلوج قممها معظم أيام السنة .

٢ ــ الجبال :

أ ــ جبال هندكوش :

تمتد باتجاه الجنوب الغربي لتشغل أكثرية أرض أفغانستان ، حيث تصل الى مقربة حدود (إيران) ويستمر هذا الامتداد على طول (٥٧٥ كم) ، وتكون

---

(١) انظر كتاب افغانستان (١٦ ــ ١٨) وكتاب أفغانستان (مواطن الشعوب الأسلامية في آسيا) (٣٣ ــ ٣٥) وكتاب هرات (تاريخها وآثارها ورجالها (ص ٩) .

مرتفعة في الشرق إذ يصل ارتفاعها الى (٥٣٣٤ م) ، بينما تنخفض في الغرب فلا يزيد ارتفاعها عن (٣٠٠٠ م) . وتنساب الأنهار منها في جميع الاتجاهات على شكل أودية وشعاب ، حتى أنّ كلمة : (هندكوش) تعنى جبال الأنهار وقد جزّأتها هذه السيول إلى عدّة سلاسل ، يطلق عليها أسماء مختلفة .

ب ـ جبال سليمان :

تتفرع من هضبة (بامير) وتتّجه جنوباً ، وتشكّل الحدود بين أفغانستان وباكستان ، وتتألّف من سلاسل متقاربة تخترقها أودية عميقة ، ويصل أعلى ارتفـاع لها إلى (٤٧٦١ م) في قمّـة (سيكرام) على الحـدود بين الدولتين في جنوبي شرقي مدينة (كابُـل) ، ومن أشهر ممراتها : ممر (خَيْبَر) الذي يمرّ فيه نهر (كابُـل) ويصل بين مدينتي (كابُـل) في أفغانستان و (بيشاور) في باكستان .

٣ ـ السهول :

تمتد السهول شمالاً في مناطق ضيّقة قريبة من مجرى نهر (جيحون) الذي يشكّل الحدود بين تركستان وأفغانستان ، ولا يزيد ارتفاعها عن (٣٠٠ م) وتؤول إليها المياه المنحدرة من جبال (هندكوش) ويصل بعضها إلى نهر (سيحون) ، بينما يغيض أكثرها في رمال المنطقة .

وتوجد أيضاً سهول في الغرب حول مدينة (هَراة) وعلى مجرى نهر (هاري رد) في مجراه الأوسط ، كما توجد سهول في الجنوب الغربي قليلة الارتفاع وأكثرها انخفاضاً على حدود إيران حيث تنتشر المستنقعات ، وتعتبر هذه الاقسام صحارى سوى ما كان منها على مجرى نهر (هلمند) .

٤ ـ المناخ :

تقع أفغانستان ضمن المنطقة المعتدلة ، سوى أجزاء صغيرة تقع ضمن الصحارى الحارة ولما كانت أفغانستان منطقة داخليّة بعيدة عن البحار والمحيطات ، لذا فمناخها قاري شديد الحرارة صيفاً شديد البرودة شتاءً ، وإن كانت الحرارة تختلف

بين المرتفعات والمناطق المنخفضة ، حيث تعتدل الحرارة صيفاً في الجبال ، فتكون هضابها ومرتفعاتها مصايف جميلة ، أما في الشتاء فشديدة البرد ، وكثيراً ما تنخفض درجات الحرارة إلى (٢٠°) درجة مئوية دون الصفر وتكون مكلّلة بالثلوج . أما المناطق المنخفضة فصيفها حار لاهب تزيد درجة الحرارة فيه على (٤٥°) درجة مئويّة ، وينام الناس على اسطحة المنازل طلباً للنسمات العليلة المعتدلة التي هي نسيم الجبال ، تخلصاً من الحر الشديد والجو الخانق داخل البيوت . وأكثر المناطق حرارة هي المناطق الجنوبيّة الغربيّة ، وفي الشتاء يعمّ الاعتدال ، وتهبط في هذا الفصل القبائل من الجبال .

وتهبّ الرياح الموسميّة على جبال (سليمان) في الصيف لا تتعدّاها ، وتحمل معها الأمطار ، أما بقيّة المناطق فتهبّ عليها الرياح الشمالية الشرقية الجافّة التي تأتي من مناطق قاريّة .

وفي الشتاء تصل إلى البلاد الرياح الغربيّة التي تحمل بعض الرطوبة من البحر الابيض المتوسّط رغم بعده ، فتسبّب هطول بعض الأمطار ، وتتساقط في المرتفعات على شكل ثلوج بسبب شدّة البرد ، كما تتعرض الأجزاء الشمالية من البلاد للرياح الباردة الشديدة البرد ، فتسبّب تلك اللفحات القارصة وتنشر الصّقيع .

وأفغانستان بسبب بعدها عن البحار ، فهي قليلة الأمطار ، وأكثرها ما يهطل على المرتفعات في الشرق والشمال الشرقي ، حيث تبلغ الكمّيات الهاطلة من الأمطار هناك (٣٨٠ مم) في السنة . وأقلّ المناطق مطراً هي المناطق الواقعة في الجنوب الغربي ، ويبلغ ما يهطل عليها من مطر (٥٠ مم) فقط في السنة . والمعدّل العام للمطر هو (٢٥٠ مم) في السنة ، ولكن هذه الكمية تتفاوت من سنة إلى أخرى .

وتتميز سماء أفغانستان بالصحو في معظم أيام السنة ، فالصيف دائم الصحو ، وأكثر أيام الشتاء صافية السماء وأقلها غائمة ، وتسطع الشمس الدافئة في أغلب الأحيان .

٥ ــ المياه :

الأنهار في أفغانستان قليلة ، وبخاصة الأنهار الدائمة الجريان ، بسبب قلّة الأمطار ، والأنهار الجارية ضئيلة المياه ، تجري في بطون الوديان على شكل خيوط

اقليما فارس وكرمان

اقليم خوزستان
اقليم الجبال
اقليم قوهستان
المفازة الكبرى
اقليم فارس
اقليم كرمان
اقليم مكران
بحر فارس
جبل القفص
جزيرة خارك
جزيرة لاوان
جزيرة قيس
المقياس بالاميال الانكليزية

من الماء سببها ذوبان الثلوج الدائمة . ولكن عدد الأودية كثير ، معظمها يجفّ أغلب أيام السنة لقلة المطر . وهي تمتلئ بالمياه إثر زخّات المطر ، وتفيض في فصل الربيع وأوائل فصل الصيف لذوبان الثلوج بسبب ارتفاع درجات الحرارة ، وتشحّ فيما عدا ذلك لشدّة الحرارة التي تؤدي إلى زيادة التبخّر وقلّة التغذية والإستفادة ببعض ما يجري فيها للري .

ومن أهم هذه الأنهار :

أ : جيحون : ينبع من هضبة (بامير) ويجري في الشمال ، ويشكّل الحدود بين أفغانستان وتركستان مسافة (٦٣٠ كم) ، ويتلقى تغذيته من ثلوج (بامير) والجبال المشرفة على واديه سواء من جبال (هندكوش) من الجنوب أم مرتفعات تركستان من الشمال ، ويصبّ في بحيرة (خوارزم) مشكّلاً جزيرة واسعة (دلتا) ، وكان فيما مضى يصبّ في بحر الخزر (قزوين) ، ويبلغ طوله (٢٢٤٠ كم) ، ويفيض في أيام الربيع .

ومن الجدير بالذكر ، أنّ البلاد الواقعة وراءه أطلق عليها المسلمون اسم : بلاد ما وراء النهر ، نسبة إليه .

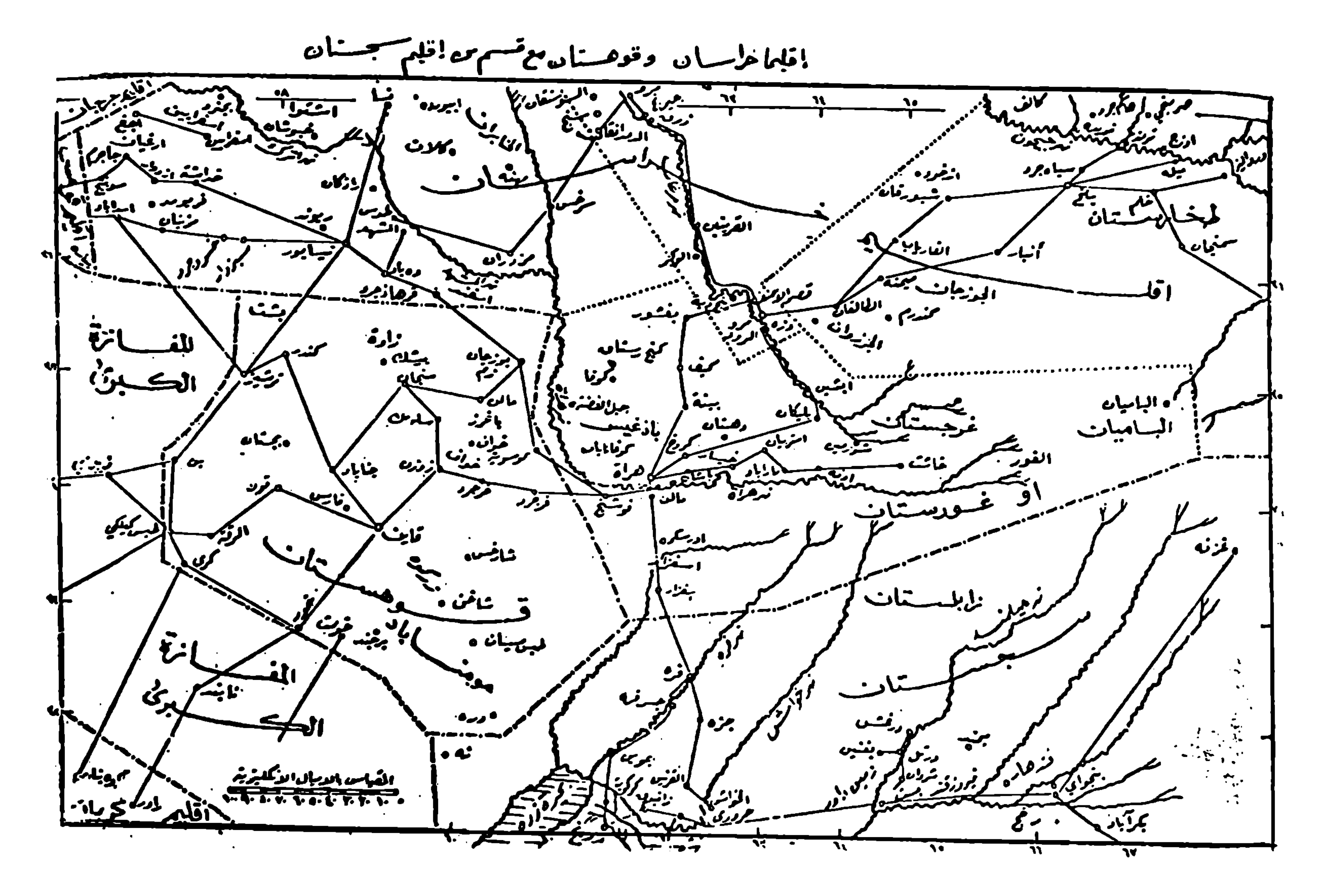
ومن المدن المشهورة التي تقع على هذا النهر مدينة (تِرْمِذ) ، وهي على حدود أفغانستان ضمن جمهورية الأزبك الخاضعة اليوم للسيطرة الروسية .

ب : نهر هلمند :

يبدأ مجراه الأعلى من المرتفعات الوسطى من جبال (كوه بابا) من غربي مدينة (كابُل) ، كما تتدفّق إليه المياه التي تنساب من الجبال الجنوبيّة لجبال(هندكوش) والسفوح الغربيّة للمرتفعات الشرقيّة عبر روافد كثيرة وأودية عديدة . واتجاه النهر نحو الجنوب الغربي ثم نحو الغرب ، وأخيراً يتّجه نحو الشمال ليصبّ في بحيرة (سيستان) على الحدود الأفغانية ـــ الإيرانية .

ويبلغ طوله (١١٢٠ كم) ، ويروي وفروعه منطقة تزيد مساحتها على ثلث المساحة العامة لأفغانستان ، وتقع في الجنوب الغربي من البلاد .

إقليما خراسان وقوهستان مع قسم من إقليم سجستان



ج : نهر خاش :

تنحدر مياهه من جبال (تيماني) ويتّجه نحو الجنوب الغربي ، ويصب ما يفيض من مياهه في منخفض (سيستان) .

د : نهر فرح :

تنحدر مياهه من جبال (تيماني) ويمرّ بمدينة (فرح) ، ويصبح بعدها جافاً ، ولا تجري المياه في واديه إلاّ بعد زخّات المطر الشديد ، ويبلغ طوله (٦٤٠ كم) ، ويصب في منخفض (سيستان) .

ﻫ . نهر هاروت :

يجري في الغرب ، ويصب في منخفض (سيستان) .

و . نهر هاري :

يجري في الغرب ، ويمتدّ إلى أواسط البلاد ، وتقع في حوضه مدينة (هَراة) ، ويستمر في اتجاهه الغربي حتى يصل إلى حدود (إيران) ، ثم بين (تركستان) و (إيران) ، وأخيراً تغيض مياهه في رمال (تركستان) .

ومن المدن الواقعة على هذا النهر مدينة (سرخس) عند انعطاف الحدود الإيرانية نحو الغرب ، وتقع ضمن (تركستان) .

ويصل طول هذا النهر إلى (١٠٠٠ كم) تقريباً منها في (أفغانستان) نحو (٦٥٠ كم) والباقي في (تركستان) .

كما كانت مدينة (بيهق) تقع في مجراه الأسفل ، حيث تزول مياهه قريباً منها ، وتقع هذه المدينة في (تركستان) ، وقد اندثرت اسماً ، حيث لم يطلق اسمها على ما بُني على أنقاضها .

ز . نهر مورغاب :

ينبع من شمالي جبال (هندكوش) ومن أواسط البلاد ، ويتجه نحو الغرب ، وتقع عليه مدينة (مرو) عاصمة (خُراسان) .

ح . نهر كابُل :

ينبع من وسط البلاد ، ويتّجه شرقاً ، فيمرّ بمدينة (كابُل) ، ويجتاز ممر

(خيبر) ويدخل (باكستان) ، فيمر بمدينة (بيشاور) ، وبعدها يرفد نهر (السِّند) عند مدينة (أوتوك) .

يبلغ طوله نحو (٦٠٠ كم) ، ويعتبر من أهم الأنهار الأفغانية ، لفوائده الكبرى ولاستمرار تدفّق مياهه .

السكـان

١ — البوشتن Pushtuns :

يُشكِّلون ٦٠٪ من مجموع السكّان ، وهم خليط من العناصر التركيّة والإيرانيّة ويجتمعون في المناطق الواقعة جنوبي جبال (هندكوش) ، كما يتواجدون في المناطق الواقعة شماليها ، وهم يعملون في الزراعة كما يمتهنون الرعي ، ويتميّزون بالقامة الطويلة ولون البشرة الأسمر والشعر الأسود المتموِّج ، وقد اعتادوا تحمل المشاق بسبب طبيعة بلادهم ووعورة جبالها . وتقيم بعض قبائلهم في باكستان ، وقد فصلت الحدود الاصطناعية بين أفغانستان وباكستان هذه القبائل بعضها عن فجزّأتها ، ويعرفون في باكستان باسم : قبائل (الباتان) .

ومن أشهر فروع (البوشتن) في أفغانستان : (الغلزة) وهم من فرع الجنوب ، وبسبب ميل لون هؤلاء إلى البياض ، فقد ظنّ بعضهم أنهم مجموعة خاصة تختلف عن (البوشتن) .

٢ — الطاجيك :

وهم عناصر إيرانيّة . يتميّزون بالقامة المتوسطة ، ويسكنون الوديان العليا من إقليم (باداخشان) وفي السهول العليا في وسط البلاد حتى الغرب ، حيث يعمرون السهول الغربية حول مدينة (هراة) ، ويشكّلون ٣٠٪ من السكّان ، ويعملون في الزراعة والصناعة والتجارة .

٣ — الاتراك :

وهم امتداد لسكّان تركستان الغربيّة ، حيث نجد الأوزبك الذين يشكِّلون ٥٪ من مجموع سكّان أفغانستان . والتركمان وهم يقيمون على الضفة الجنوبيّة لنهر جيحون ، والقرغيز الذين ينتقلون في هضبة (بامير) ويرعون الأغنام والماعز

وحيوانات الياك . وبالقرب من هذه القبائل يقيم (القوزاق) أيضاً ، وهم من هذه المجموعة من القبائل .

٤ ــ الهزارة :

وقد انحدروا من أصل مغولي، وعددهم قليل نسبياً، وموطنهم المرتفعات الوسطى ، ويعملون في الرعي والزراعة .

٥ ــ البالوخ :

وهم في الجنوب ، والقليل منهم يقيمون في أفغانستان ، وأكثرهم يقيم في إقليم (بلوخستان) من باكستان ، وهو أقليم مجاور لأفغانستان ، ويطلق عليهم : البالوج أو البالوش .

المدن

١ ــ كابل :

تقع على النهر المسمى باسمها : (نهر كابل) ، وهي قسمان : القسم الشرقي وهو المدينة القديمة ، والقسم الغربي وهو المدينة الحديثة .

٢ ــ هراة :

تقع على نهر (هريرود) ، ولعلها اسمها مشتق منه ، وتقع في المنطقة الغربية حيث تنتشر السهول .

وهي مدينة أثرية قديمة ، من أمهات مدن (خُراسان) ، تبعد عن (كابُل) بنحو (١٠٤٢ كم) وترتفع عن سطح البحر بنحو (١٩٢٠ م) ، يصلها بقندهار وسِجسْتان وكابل طريق معبّد ، وتتصل من الجهة الشمالية بباذغيس ومرو الروذ وجوزجان .

٣ ــ قندهار :

تقع على مجرى أحد فروع نهر (هلمند) قريبة من الحدود الباكستانية .

٤ ــ مزار شريف :

مدينة قديمة من الشمال ، وهي مركز مقاطعة (بلخ) .

٥ ــ بلخ :

مدينة تاريخية قديمة ، كانت عاصمة مملكة (ايريانا) القديمة ، وكانت تحمل اسم : (باكتريا) ، وتقع إلى الغرب من مدينة (مزار شريف) . وعلى مسافة مائة كيلومتر منها تقريباً .

٦ ــ غزنة :

مدينة تاريخية قديمة ، تقع جنوبي غربي مدينة (كابُل) على بُعد مائة وخمسين كيلومتر منها ، وهي على طريق المواصلات بين (كابُل) و (قندهار)

٧ ــ طالقان :

بلدتان ، إحداهما بخرسان بين (مرو الروذ) و (بلخ) ، بينها وبين (مرو الروذ) ثلاث مراحل ، وهي اكبر مدينة بطخارستان ، ويقال لها : (طالقان مرو الروذ) . والأخرى بلدة وكورة بين قزوين وأنهر ، ويقال لها : (طالقان قزوين) .

٨ ــ فارياب :

مدينة مشهورة بخُراسان من أعمال (جوزجان) قرب(بلخ) غربي (جيحون) ، وتعرف اليوم مقاطعة بهذا الاسم ، ومركزها مدينة (ميمنة) ، وهي (ميمنة جوزجان) .

٩ ــ جوزجان :

اسم كورة واسعة من كور (بلخ) بخُراسان ، بين (مرو الروذ) و (بلخ) ومن مدنها (فارياب) .

وتوجد اليوم مقاطعة تحمل هذا الاسم إلى الشرق من مقاطعة (فارياب) .

١٠ ــ مرو :

مدينة قديمة ، وهما مدينتان : الأولى باسم : (مرو الشاهجان) وهي مرو العظمى أشهر مدن (خُراسان) وقصبتها ، وهي الآن في خراسان التي تقع في الاتحاد السوفياتي . أما مرو الثانية فهي (مرو الروذ) وهي مدينة صغيرة بالنسبة

إلى (مرو الشاهجان) وقريبة منها ، بينهما خمسة أيام ، وتقع على نهر (مورغاب) في حدود أفغانستان وداخلها على حدود تركستان .

وتقدر المسافة بين هاتين المدينتين بنحو مائتين وخمسين كيلومتر .

١١ – طخارستان :

هي المنطقة الأفغانية التي تقع شرقي مدينة (بلخ) ، وهي بلاد جبليّة .

فتح أفغانستان

١ – المعركة الحاسمة :

خاض المسلمون معركة (نَهاوند) بقيادة نُعْمان بن مُقَرِّن المُزَنِيّ رضي الله عنه سنة إحدى وعشرين الهجرية (٦٤٢ م) ، وهي إحدى المعارك الحاسمة التي كانت بين المسلمين من جهة وبين الإمبراطوريّة الساسانيّة من جهة أُخرى ففتحت هذه المعركة الحاسمة للمسلمين أبواب فارس والمشرق الإسلامي ومنها أفغانستان ، لذلك أطلق المسلمون على هذه المعركة بحق اسم : فتح الفتوح .

وبدأت بعد هذه المعركة الحاسمة معارك : استثمار الفوز ، وهي معارك محلية قاتل فيها قسم من جيوش المسلمين جيوش الحكّام المحليين ، فعقد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بيده سبعة **ألوية** لسبعة قادة ، عهد إليهم بالانسياح في المناطق الخاضعة للحكم الساساني والتي تحكم باسم حكّام فارس .

وكان من بين هذه الجيوش جيشان اتّجها نحو المنطقة التي تسمى اليوم : أفغانستان الأول بقيادة الأحنف بن قيس التميمي [1] ووجهته (خُراسان) ، والثاني بقيادة عاصم بن عمرو التميمي [2] ووجهته (سِجِسْتان) .

٢ – فتح الاحنف :

تقع (خُراسان) بين هضبة (إيران) وسفوح جبال (هندكوش) وتلال بلاد (ما وراء النهر) ، وهي اليوم ضمن ثلاث دول : أفغانستان ومن مدنها (هراة)

---

(١) انظر سيرته في كتابنا : قادة فتح بلا د فارس (٢١٧ – ٢٤٦) .

(٢) انظر سيرته في كتابنا : قادة فتح بلاد فارس (٢٧٩ – ٢٨٩) .

و (بَلْخ) ، وإيران ومن مدنها (نيسابور) ، وتركستان التي تخضع اليوم للسيطرة الروسيّة ومن مدنها (مرو الشاهجان) حاضرة (خراسان) كلّها في أيام الأحنف .

وقد شهد الأحنف قبل أن يتوجّه لفتح (خُراسان) فتح (نَهاوند) مع أهل البصرة الذين جاؤوا مدداً وعليهم أبو موسى الأشعري[1] ، فلما انصرف أبو موسى من (نهاوند) وفتح (قُم) وجّه الأحنف إلى (قاشان) ، ففتحها عنوة ثم لحق بأبي موسى الأشعري .

وبعد أن أنجز الأحنف متطلبات قوّاته القتاليّة كافة وأكمل حشدها ، سار لفتح (خُراسان) سنة ثماني عشرة الهجريّة (٦٣٩ م)، وفي قول : سنة اثنتين وعشرين الهجرية (٦٤٢ م) .

وسار الأحنف على رأس جيشه حتى دخل (خُراسان) من (الطَبَسَيْن)[2]، فافتتح (هَراة) عنوة واستخلف عليها .

وسار نحو (مرو الشاهجان) ، فكتب (يزدجرد) وهو في (مرو الرّوذ) إلى خاقان ملك الترك وإلى ملك (الصُّغْد) وإلى ملك (الصِّين) يستمدّهم .

وخرج الأحنف من (مرو الشاهجان) بعد أن وصلته إمدادات (الكوفة) ، فسار نحو (مرو الرّوذ) ، وقدّم أهل (الكوفة) إلى (بَلْخ) وأتبعهم الأحنف ، فالتقى أهل الكوفة بيزدجرد في (بَلْخ) فهزموه ، فما لحق الأحنف بأهل الكوفة إلاّ وقد فتح الله عليهم .

وتتابع أهل (خراسان) ممن شذّ أو تحصّن على الصلح فيما بين (نيسابور) إلى (طخارستان)[3] ممن كان في مملكة كسرى . أما الأحنف ، فعاد إلى (مرو الرّوذ) فنزلها ، واستخلف على (طخارستان) .

---

(١) انظر سيرته في كتابنا : قادة فتح بلاد فارس (١٧٨ – ١٩١) .

(٢) طبس : مدينة في برية بين نيسابور وأصبهان وكرمان ، وهما طبسان : طبس كيلكي وطبس مسينان ، ويقال لهما : الطبسان ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦ / ٢٨) وآثار البلاد وأخبار العباد (٤٠٦) .

(٣) طخارستان : المنطقة الأفغانية التي تقع شرقي مدينة (بلخ) ، وهي بلاد جبلية .

وكتب الأحنف إلى عمر بن الخطّاب رضي الله عنه بفتح (خراسان) ، فقال عمر عن الأحنف : « هو سيِّد أهل المشرق المسمّى بغير اسمه » ولكنّ عمر قال : « لَوَدِدْتُ أني لم أكن بعثت إلى (خُراسان) جنداً ، ولَوَدِدْتُ أنه كان بيننا وبينها بحر من نار » وخشي عمر أن يتقدّم الأحنف بجنوده إلى ما وراء (خراسان) من أرض المشرق ، كما خشي أن تأخذ المسلمين نشوة الظفر فيتغلغلوا شرقاً ، فكتب إلى الأحنف يقول : « أما بعد ! فلا تجوزنّ النهر واقتصر على ما دونه ، وقد عرفتم بأيِّ شيءٍ دخلتم على (خراسان) ، فداوموا على الذي دخلتم به يَدُمْ لكمْ النصر ، وإياكم أن تعبروا فتنفضوا » .

لقد كان لهذا الحذر من جانب عمر ما يُسوِّغه ، فقد اتّسعت رقعة الفتح في المشرق ، فشملت أرض فارس كلّها ، وقد طالت خطوط المواصلات كثيراً ، وتوزّعت قوات المسلمين في أرجاء الشام ومصر والعراق وفارس ، وقد دلّت الحوادث من بعدُ ، أنّ عمر كان حصيف الرأي بعيد النظر ، فقد سار خاقان الترك في جنده ، ويزدجرد معه ، فعبروا النهر إلى (بلخ) ، واضطروا جند الكوفة أن يتراجعوا منها إلى (مرو الروذ) . وكان الأحنف قد خرج بقوّاته ليلاً من المدينة وعسكر خارجها ، وفي الصباح جمع الناس وقال لهم : « إنكم قليل ، وإنّ عدوّكم كثير ، فلا يهولنّكم ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ، والله مع الصابرين . ارتحلوا من مكانكم هذا ، فاسندوا إلى هذا الجبل ، فاجعلوه في ظهوركم ، واجعلوا النهر بينكم وبين عدوِّكم ، وقاتلوهم من وجه واحد » ، وكانت قوات الأحنف تقدّر بعشرين ألفاً : عشرة آلاف من أهل الكوفة ، وعشرة آلاف من أهل البصرة .

وأقبل الترك ، فكانوا يناوشون المسلمين نهاراً ويتنحّون عنهم ليلاً ، فخرج الأحنف بنفسه طليعة لأصحابه ، حتى كان قريباً من معسكر خاقان الترك ، فلما تنفّس الصبح ، خرج فارس من الترك بطوقه ، وضرب بطبله ، فحمل عليه الأحنف فاختلفا طعنتين ، فطعنه الأحنف وهو يقول :

إنّ على كلِّ رئيس حقاً   أن يخضب الصَّعدة أو ينْدَقّا

إن لنا شيخاً بها مُلَقّى سيف أبي حفص الذي تَبَقّى[1]

وخرج فارس تركي ثان ، فأورده الأحنف حتفه بطعنة نجلاء ، وهو يرتجز :

إنّ الرئيس يَرْتَبي ويطلع ويمنعُ الخُلاّء أما أربعوا[2]

وخرج فارس تركي ثالث ، فأورده الأحنف مورد صاحبيه وهو يرتجز :

جرْي الشّموس ناجزاً بناجزٍ محتفلاً بجريه مشارز[3]

ثم انصرف الأحنف إلى عسكره ، وأعدّ رجاله للقتال ، ولكنّ الترك آثروا العودة إلى ديارهم ، لأنّ مقامهم طال دون جدوى ، ولأنهم تكبّدوا خسائر فادحة بالأرواح ، ولأن أملهم بالنصر كان ضعيفاً ، ولأنهم اطمأنوا إلى أنّ المسلمين لن يعبروا إليهم النهر تنفيذاً لأمر الخليفة عمر بن الخطّاب .

وكان يزدجرد حين انسحب جند الكوفة عن (بَلْخ) وانضموا إلى الأحنف بـ (مرو الرّوذ) ، قد فصل بقوة فارسيّة من (بلخ) إلى (مرو الشاهجان) ، فحصر المسلمون بها واستخرج خزائنه من موضعها .

وعلم يزدجرد بانسحاب خاقان إلى (بلخ) وعزمه على الانسحاب من فارس كلّها إلى بلاده ، فأراد أن يحمل خزائنه ويلحق بخاقان حليفه ، فقال له أهل فارس : أيّ شيءٍ تريد أن تصنع ؟ ! فقال : « أُريد اللّحاق بخاقان فأكون معه أو بالصين ! » ، فقالوا : مهلاً ! إنّ هذا رأي سوء ، فانك إنما تأتي قوماً في مملكتهم وتدع أرضك وقومك ، ولكن ارجع بنا إلى هؤلاء القوم فنصالحهم فإنهم يلون بلادنا ، وانّ عدواً يلينا في بلادنا أحبّ إلينا مملكة من عدوٍ يلينا في بلاده ، ولا دين لهم ولا ندري ما وفاؤهم ! ! فأبى عليهم وأبوا عليه ، فقالوا : فدع خزائننا نردّها إلى بلادنا ومَن يلينا ولا تخرجها من بلادنا إلى غيرها ! فخالفهم يزدجرد وأصرّ على رأيه ، فخرجوا إليه وثاروا به وقاتلوه وحاشيته واستولوا على خزائنه ،

---

(١) الصمدة : الرمح ، أو آلة جارحة أصغر من الحربة . ملقى : طريح ، ويقصد به الشهيد .

(٢) يرتبى يصعد الرابية . الخلاء : جمع خلي ، وتميم تقول : خلا فلان على اللبن واللحم ، إذا لم يأكل معه شيئاً ولا خلط به . ربع بالمكان : أقام .

(٣) الشموس : الفرس تمنع ظهرها . مشارز : الشدة والصعوبة والقوة .

ففرّ فيمن معه إلى (بَلْخ) ، فإذا خاقان سبقه إلى الانسحاب منها ، فتابع فراره حتى بلغ (فَرْغانة) عاصمة الترك، فقال المسلمون للأحنف : ما ترى في إتِّباعهم؟ فقال : « أقيموا بمكانكم ودعوهم » .

وأقبل أهل فارس على الأحنف ، فصالحوه وعاهدوه ودفعوا إليه خزائن كسرى وأمواله ، فسار الأحنف بجند الكوفة من (مرو الرّوذ) إلى (بَلْخ) فأنزلهم بها ، ثم عاد إلى مقر قيادته في (مرو الرّوذ) .

وكتب الأحنف إلى عمر بن الخطّاب رضي الله عنهما بالفتح ، وبعث إليه بالأخماس ، فجمع عمر الناس وخطبهم ، وأمر بكتاب الفتح فقرئ عليهم ، وقال في خطبته : « ألا إنّ الله قد أهلك ملك المجوسيّة وفرّق شملهم ، فليسوا يملكون من بلادهم شبراً يضرّ بمسلم . ألا وإنّ الله قد أورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأبناءهم لينظر كيف تعملون ، والله بالغ أمره ومنجز وعده ومتبع آخر ذلك أوّله ، فقوموا في أمره على رجل يعرف لكم بعهده ويؤتكم وعده ، ولاتتبدّلوا ولا تتغيّروا فيستبدل الله بكم غيركم ، فإني لا أخاف على هذه الأمة أن تُؤتى إلاّ من قِبَلكم » ، فكان فتح الأحنف لخراسان النذير الصّادق بانتهاء دولة الأكاسرة من بني ساسان ونشر رايات الإسلام في تلك البلاد [1] .

٣ ــ فتح عاصم :

بعد فتح (نهاوند) ، قرّر عمر بن الخطّاب رضي الله عنه أن يدفع قوّات المسلمين إلى سائر أنحاء فارس ، فعقد بنفسه سبعة ألوية لسبعة قادة عهد إليهم بالانسياح في ارض فارس كلِّها كما ذكرنا ، وكان من بين هذه الألوية السبعة لواء (سِجِستان) دفعه إلى عاصِم بن عمرو التميمي ، وأمّره على رأس جيش من البصرة ، ثم أمدّه بأهل الكوفة بقيادة عبدالله بن عمير .

وسجستان ولاية كبيرة واسعة تشمل اليوم : منطقتي (راجستان) و (سيستان) ومن مدنها (قُنْدهار) و (زَرَنج) [2] ، ويقع منها اليوم في إيران ، وهو غربي (سيستان).

(١) انظر تفاصيل فتح الأحنف في كتابنا : قادة فتح بلاد فارس (٢٢٠ – ٢٢٦) .
(٢) زرنج : مدينة لم يبق لها اليوم أثر ، تقع في منطقة (سيستان) على الحدود بين أفغانستان وإيران في بقعة المستنقعات ، كانت مركز الولاية .

وعسكر عاصم بالقرب من البصرة ، حتى أكمل حشد قواته وأنجز متطلباتها الإدارية ، ثم توجّه نحو هدفه (سِجستان) ، وهي أعظم من (خُراسان) وأبعد فروجاً ، يقاتل أهلها القندهار والترك وأُمماً كثيرة ، وهي ناحية كبيرة وولاية واسعة ، وكلّ ذلك يدلّ على أهمية واجب عاصم ، وأنّ اختياره لهذا الواجب الخطير كان دليلاً على الثقة البالغة بقيادته .

والتقى عاصم بحُماة (سِجستان) على تخوم بلادهم ، فلم يثبتوا للمسلمين ، بل انسحبوا إلى (زَرَنْج) عاصمة ولاية (سِجستان) ، فحاصرهم المسلمون فيها وبثّوا كتائبهم تتغلغل في المنطقة كلّها . ولما أيقَن المحاصَرون أنّ طول الحصار يضرّ بمصالحهم ومصالح إقليمهم ولا يجديهم نفعاً ، طلبوا الصّلح على أن تكون مزارع (سِجستان) حمىً لا يطؤها المسلمون، وبذلك فُتحت ولاية (سجستان) ودخلت ضمن البلاد الإسلامية [1] .

٤ ـ استعادة أفغانستان :

أ ـ جهاد الاحنف بن قيس

نكث أهل فارس العهد بعد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ، فلما استعاد عبدالله بن عامِر فتح بعض أرض فارس في أيام عثمان بن عفّان رضي الله عنه ، غزا (خُراسان) وعلى مقدمته الأحنف ، فأتى (الطَّبَسَيْن) وهما حصنان وبابا (خُراسان) ، فصالحه أهلهما ، فسار إلى (قُهُسْتان) ، فلقيه أهلها ، فقاتلهم حتى ألجأهم إلى حصنهم ، فقدم عليها عبدالله بن عامر وصالح أهلها .

ووجّه عبدالله بن عامر الأحنف إلى (طخارستان) ، فأتى الموضع الذي يقال له : قصر الأحنف ، وهو حصن (مرو الرّوذ) ، فصالح أهله بعد حصارهم على ثلاثمائة ألف درهم .

ومضى الأحنف إلى (مرو الرّوذ) ، فصالح أهلها بعد قتال شديد . وسيّر الأحنف سرية إلى (بغ) [2] ، فاستولت على الرستاق وصالحت أهله .

---

(١) انظر التفاصيل في كتابنا : قادة فتح بلاد فارس (٢٨٦) .

(٢) بغ : ويقال لها : بغشور ، وهي بليدة بين (هراة) و (مرو الروذ) .

وجمع للأحنف أهل (طخارستان) ، فاجتمع أهل (الجوزجان) و (الطالقان) و (الفارياب) ومَن حولهم ، فبلغوا ثلاثين ألفاً ، وجاءهم أهل (الصَغانيان) وهم من الجانب الشرقي من نهر (جيحون) ، فالتقوا بالمسلمين ، وجرى قتال شديد بين الطرفين ، فانهزم الفرس وحلفاؤهم ، فطاردهم المسلمون وألحقوا بهم خسائر فادحة بالأرواح .

ولحق قسم من العدو (بالجوزجان) ، فوجّه إليهم الأحنفُ الأقرعَ بن حابِس التَّمِيْمِيّ في خيل ، وأوصى قومه بني تَمِيْم بقوله : « يا بني تَمِيْم ! تحابّوا وتباذلوا تعدل أموركم ، وابدأوا بجهاد بطونكم وفروجكم يصلح لكم دينكم ، ولا تغلوا يسلم لكم جهادكم » ، فسارع الأقرع ولقي العدو (بالجوزجان) ، فكانت بالمسلمين جولة ، ثمّ عادوا فهزموا عدوّهم وفتحوا (الجوزجان) عنوة .

واستعاد الأحنف فتح (الطالقان) صلحاً ، وفتح (الفارياب) ، ثم سار إلى (بَلْخ) وهي مدينة (طخارستان) ، فصالحه أهلها أيضاً .

وسار إلى (خوارزم)[1] وهي على نهر (جيحون) ، فلم يقدر عليها ، فاستشار أصحابه ، فأشاروا عليه بالعودة إلى (بَلْخ) .

وهكذا استعاد الأحنف (خُراسان) ثانية ، وكان ذلك سنة ثلاث وثلاثين الهجرية (٦٥٣ م) على عهد عثمان بن عفّان رضي الله عنه[2] .

ب ـ الربيع بن زياد الحارثي :

نقض أهل (سِجستان) بعد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ، فلما توجّه عبدالله بن عامِر إلى (خراسان) سنة إحدى وثلاثين الهجرية على عهد عثمان ابن عفان رضي الله عنه ، سيّر إليها من (كرمان) الربيع بن زياد الحارثيّ ،

---

(١) خوارزم : اسم اقليم وهو منقطع عن (خراسان) وعن (وراء النهر) ، وتحيط به المفاوز من كل جانب ، وحدها متصل بحد (الغزية) فيما يلي الشمال والغرب ، وجنوبيه وشرقيه خراسان وما وراء النهر ، وهي على جانبي نهر (جيحون) ، ومدينتها في الجانب الشمالي من جيحون ، انظر التفاصيل في المسالك والممالك (١٦٨) ومعجم البلدان (٣/٤٧٤) .

(٢) انظر التفاصيل في كتابنا : قادة فتح بلاد فارس (٢٢٦ - ٢٢٨) .

فسار إليها حتى نزل (الفِهْرج) التي تقع بين (فارس) و (أصبهان) ومعدودة من أعمال (فارس) ثمّ من أعمال كورة (إصطخر) ، ثم قطع المفازة وهي خمسة وسبعون فرسخاً ، فأتى رستاق (زالق) من نواحي (سجستان) ، فأغار على أهله في يوم (مهرجان) وهو عيد من أعياد الفرس ، وأسر دهقان (زالق) ، فافتدى نفسه ، فحقن الربيع دمه وصالحه على أن يكون بلده كبعض ما افتتح من بلاد (فارس) و (كرمان) .

ثمّ أتى الربيع قرية يقال لها : (كَرْكَوَيْه) على خمسة أميال من (زالق) ، فصالحوه ولم يقاتلوه .

ونزل الربيع رستاقاً يقال له : (هيسون) وهو رستاق بين (زالق) و (زَرَنْج) ، فأقام له أهل النزلة وصالحوه على غير قتال .

وعاد الربيع إلى (زالق) ، وأخذ الأدلاّء منها إلى (زَرَنْج) ، وسار حتى نزل (هِنْدَمَنْد) وهو نهر مدينة (سجستان) ، وعبر جيشه وادياً يتفرع منه يقال له : (نُوْق) ؛ وأتى (دوشت) وهي مدينة بينها وبين (زرنج) ثلثا ميل ، فخرج إليه أهلها وقاتلوه قتالاً شديداً ، فأصيب رجال من المسلمين ، ولكنّ المسلمين كرّوا عليهم حتى اضطروهم إلى اللّجوء إلى المدينة بعد أن قتلوا منهم مقتلة عظيمة .

وسار الربيع إلى (ناشروذ) ناحية بسجستان ، فقاتل أهلها وظفر بهم ، ثم مضى منها إلى (شرواذ) في (سجستان) فغلب عليها وأصاب بها بعض السّبى .

وحاصر الربيع (زَرَنْج) بعد أن قاتله أهلها ، فبعث إليه (أبرويز) مرزبانها يستأمنه ليصالحه ، فصالحه على ألف وصيف ، مع كل وصيف جام من ذهب ، فدخل المسلمون (زَرَنْج) .

وانتقل الربيع بعد ذلك إلى (سناروذ) وهو نهر (سجِستان) ، فعبره وأتى (قِرْنِيْن) وهي قرية من قرى (سجستان) ، فقاتله أهلها ، ولكنه ظفر بهم .

وعاد الربيع إلى (زرنج) ، فأقام بها سنتين ، ثم أتى عبدالله بن عامر ، واستخلف بها رجلاً من بني الحارث بن كعب ، فأخرجه أهل (زرنج) وأغلقوها .

وكانت ولاية الربيع سنتين ونصفاً ، وسبى في ولايته هذه أربعين ألف نسمة ، وكان كاتبه الحسن البصري رضي الله عنه .

ولما صار الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان ، عزل عبدالرحمن بن سَمُرَة عن (سجستان) وولاّها الربيع ، وكان ذلك سنة إحدى وأربعين الهجرية (٦٦١ م)، فأظهره الله على الترك .

وبقي الربيع على (سجستان) إلى أن مات المُغِيْرَة بن شُعْبَة [١] وهو أمير على الكوفة وذلك سنة خمسين الهجرية (٦٧٠ م) ، فولّى معاويةُ زيادَ بن أبي سفيان الكوفة مع البصرة ، وجمع لهُ العِراقيْن .

وعزل زياد بن أبي سفيان الربيعَ عن (سِجستان) وبعثه إلى (خُراسان) أميراً سنة إحدى وخمسين الهجرية (٦٧١ م) ، وسيّر معه خمسين ألفاً بعيالاتهم من أهل الكوفة والبصرة ، فأسكنهم دون النهر (نهر جيحون) في (خراسان) ، فلما قدمها غزا (بَلْخ) ففتحها صلحاً ، وكانت قد أغلقت أبوابها بعدما صالحهم الأحنف بن قيس التميمي .

وفتح (قُهِسْتَان) عنوة ، وقتل مَن بناحيتها من الأتراك ، فبقي منهم (نيزك طرخان) ملك الترك ، فقتله قُتَيْبَة بن مُسْلِم الباهِلِيّ في ولايته .

وهكذا استطاع الربيع استعادة فتح (سجستان) و(خراسان) [٢] .

٥ ـ معارك الفتح ومعارك الاستعادة :

كانت معركة (نهاوند) بين المسلمين من جهة والامبراطورية الساسانية من جهة ، معركة حاسمة ، وكان من نتائجها فتح أبواب المشرق الإسلامي للفاتحين المسلمين ، فهي معركة سَوْقِيّة ، لأنها معركة بين أكبر حشد للدولة الإسلاميّة وأكبر حشد للإمبراطورية الساسانية ، ولأن نتائجها أثّرت في حاضر ومستقبل الإمبراطورية الساسانية في المناطق والبلاد التي كانت تسيطر عليها ، وكان تأثيرها حاسماً لانهيار القوّة الضّاربة للساسانيين .

---

(١) انظر تفاصيل سيرته في كتابنا : قادة فتح العراق والجزيرة (٤٣١ ـ ٤٥٥) .
(٢) انظر التفاصيل في كتابنا : قادة فتح بلاد فارس (١٦٦ ـ ١٦٨) .

وبعد معركة (نهـــاوند) الحاسمة ، توزّعت القوّات الإســـلامية التي قاتلت موّحدة في هذه المعركة تحت لواء واحد وبقيادة واحدة ، إلى سبعة ألوية بقيادة سبعة قادة ، لكل قائد من القادة السبعة هدف محدّد وواجب معيّن ، فخاض كلّ قائد معركة من معارك إستثمار الفوز ، وهي معارك تعبويّة ، قاتلت القواتُ المحليّة بقيادة حكّامها المحليين فيها الفاتحين القادمين من بعـــيد بقيادة القادة المرؤوسين في أغلب الأوقات .

وقد لاقى الفاتحون مقاومة تعبوية تغلّبوا عليها بسهولة ويسر في أغلب الأوقات، ولكنّ البلاد المفتوحة نقضت واستعادت السيطرة على بلادها في الأوقات التي شغل الفاتحون بالاضطرابات الداخلية والفتن المحليّة ، لا لأن قوّات البلاد المفتوحة أصبحت قويّة متفوّقة ، بل لأنّ الفاتحين تفرّقت كلمتهم وأصبحت ســـيوفهم على أنفسهم لا على أعدائهم .

وحين استطاع الفاتحون القضاء على الإضطرابات والفتن الداخليّة المحليّة ، استعادوا البلاد المفتوحة بسهولة ويسر أيضاً ، بمعارك تعبويّة هي معارك استثمار الفوز ، دون أن يخوض المسلمون معركة حاسمة سَوْقِيّة أخرى .

ولكنّ معارك الفتح لم تكن سهلة التكاليف ، بل صادف المسلمون في كثير منها مقاومة شديدة ، وتكبّدوا فيها خسائر فادحة بالأرواح ، وجرى فتح بعض المناطق والمدن عنوة .

وكان لتلك المقاومة أسباب كثيرة ، لعَلَّ أهمها : مناعة البلاد الطبيعيّة كوعورة الجبال وسعة الصحارى وتعدّد الأنهار ، ومناعة المدن الاصطناعيّة ، كالقلاع والحصون والأسوار .

كما أنّ من الأسباب ، تفوّق المقاومين من أهل البلاد على الفاتحين عَدَداً وعُدَدا ، فقد كان قسم من حكّام تلك المناطق يحتفظون بجيش قوي ، يدافعون به عن بلادهم حين يكون الأكاسرة أقوياء ، ويقاومون جيش كسرى حين تضعف السلطة المركزية ، فهم غالباً مع كسرى القويّ وعلى كسرى الضعيف.

فلما انهارت السلطة المركزية بعد معركة (نهاوند) الحاسمة ، بقيت مقاومات

السلطات المحلية ، التي تتناسب تناسباً طردياً مع قوّة جيوش تلك السلطات ومناعة مناطقها الطبيعية والاصطناعيّة .

ومن تلك الأسباب ، الدفاع عن النفس والعقيدة والتقاليد : دفاع الحكّام عن سلطتهم ، ودفاع الحكّام والشعوب عن عقائدهم وتقاليدهم .

كما أنّ طول خطوط مواصلات المسلمين ، وتغلغلهم بعيداً عن قواعدهم الرئيسة وقواعدهم الأمامية والمتقدمة ، ساعد أعداءهم على مقاومتهم بشدة وعنف في بعض الأحيان .

والحق أنّ تغلغل المسلمين بالعمق بعيداً عن قواعدهم ، في بلاد بعيدة غاية البعد عن بلادهم ، وسط شعوب غريبة عنهم في لغاتها وعقائدها وتقاليدها ، يمكن اعتباره مغامرة من أخطر المغامرات في تاريخ الفتوح ، ومن الصعب تسويغ تلك المغامرة إلاّ بتأثير العقيدة الإسلاميّة المنشئة البنّاءة في نفوس المسلمين وعقولهم معاً ، فاستسهلوا من أجلها كلّ صعب ، وتحمّلوا في سبيلها كلّ تضحية ، وتغلبوا بها على العقبات والأهوال .

وإلاّ ، فكيف نسوّغ اندفاعهم الخطير وتغلغلهم العميق ، بقوات قليلة جداً بالنسبة لقوات أعدائهم ، لو لم تكن العقيدة الراسخة هي التي يغامرون ويندفعون ويضحّون بأرواحهم من أجلها وفي سبيلها ؟

لقد حمل الفاتحون الإسلام إلى الأمم بالفتح ، ولم يحملوهم عليه بالفتح .

ودخلت الأمم والشعوب في البلاد المفتوحة في دين الله أفواجا ، فأصبح للمغلوبين ما للفاتحين وعليهم ما عليهم .

وقد أدّى انتشار الإسلام في الأمم والشعوب التي فُتحت بلادُها إلى تصاعد قوّة الفاتحين ، لأنّ المسلمين الجدد أصبحوا عوناً للفاتحين على أعدائهم ، ولكن بقي الفاتحون هم العمود الفقري في الدفاع عن البلاد المفتوحة وفي صيانة مكاسب الفتح ، فهم القوّة الضاربة الأصليّة ، بينما أصبح المسلمون الجدد القوّة الفرعيّة المساعدة ، لذلك نقضت البلاد المفتوحة في حالات تفكّك أواصر الفاتحين الأصليين ، على الرغم من وجود المسلمين الجدد وثباتهم على الإسلام .

وانتشار الإسـلام في المغلوبين ، يفسّر لنا سهولة عودة الفاتحين إلى البـلاد التي سبق فتحها واستعادتها ثانية إلى حضيرة الدولة الإسلامية ، فقد كان استعادة تلك البلاد والمناطق بفضل انتشار الإسلام أسهل بكثير واسرع من فتحها لأول مـرة .

وحين بدّل الفاتحون ما بأنفسهم ، وتخلّوا عن عقيدتهم الراسخة أو تهاونوا في تطبيقها ، بقيت البلاد المفتوحة إسلاميّة بفضل انتشار الإسلام في ربوعها ولا تزال تلك البلاد إسلامية حتى اليوم ، ذلك لأنّ الفتح الإسلامي كان فتح مبادئ لا فتح سيوف .

والقول بأنّ البلاد المفتوحة انهارت أمام الفاتحين المسلمين لضعف قوّاتها الضاربة ، يعـوزه الدليل التاريخيّ والدليل الواقعي ، فقـد فتـح الإسكندر المقدوني تلك البلاد كما ذكرنا ، فأين هو فتحـه ، وماذا أبقى من آثار ، وكم استمرّ في تلك البلاد ؟

وفي الوقت الذي كان فتح الاسكندر سحابة صيف ، لأنه فتح قوّة وبطش ، بقي الفتح الاسلامي فتحاً مستداماً حتى اليوم ، وسيبقى واضح المعالم بارز الأثر ما بقي التاريخ ، لأنه فتح مبادئ ، والمبادئ تبقى ، وغيرها يزول .

ومن الواضح أنّ المؤرخين — ومعظمهم من الاجانب وممن نقل عنهم من المسلمين دون تمحيص — يحاولون ما استطاعوا التقليل من أهمية انتصار المسلمين عـلى الإمبراطورية الساسانية لا حبّاً بالفُرس ولكن كرهاً للعرب والإسلام ، فالعوامل التي قضت على الفرس ، بالهزيمة كائنة ما كانت ، ليست هي العوامل التي قضت للعرب بقيام الدولة وانتشار عقيدة ، لانّ استحقاق دولة للزوال لا ينشئ لغيرها حقّ الظهور والنّصر والبقاء .

كذلك لم يكن انتصار العرب على الفُرس لأنهم عرب وكفى ، فقد كان في بلاد الفرس عرب كثيرون يدينون لهم بالولاء والطّاعة ، وينظرون إليهم نظرة الإكبار والمهابة، وكان القادرون منهم على القتال أوفر من مقاتلة المسلمين وأمضى سلاحاً وأقرب إلى ساحات القتال من أولئك النازحين إليهم من الجزيرة العربيّة .

وقد كان هناك عرب كثيرون انهزموا امام المسلمين ، وهم كذلك أوفر في العَدَد والسِّلاح ، وأغنى بالخيل والإبل والأموال .

بل إنّ الفئة القليلة من العرب المسلمين ، انتصروا على الفئة الكثيرة من العرب غير المسلمين ، في عهد الرّسول القائد عليه أفضل الصّلاة والسّلام ومن بعده أيام الرِدَّة وأيام الفتح الإسلامي الأول في عهد أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه .

فهي نصرة عقيدة لا مراء ، جاءت لتبقى ، وقد بقيت فعلاً .

تلك هي عبرة فتح أفغانستان ، ما أحرانا أن نستوعبها استيعاباً كاملاً ، ونأخذ منها الدروس لحاضرنا ومستقبلنا عرباً ومسلمين .



الفهرس

المقالات

الحادي
المجلد [redacted] والثلاثون

الجـــزء الثالث

مجلة المجمع العلمي العراقي



شعبـــان ١٤٠٠ هـ
تمـــوز ١٩٨٠ م